جسر بونتون

بقلم بيتر فاليس

من ضفة النهر الاحمر المقابلة تاتي عربات الشحن باتجاه المدينة وتعبر جسر بونتون الضيق المهتز . على هذا المرتفع الطيني تزحف السيارات بحمولتها الثقيلة . منذ اكثر من ساعة ونحن ننتظر حتى يفرغ الطريق من جهتنا ويسمح لنا بالعبور ، وممنا تنتظر صفوف لا نهائية من السيارات وعربات النقل الصغيرة والناس . وخلف الشاحنات ياتي رويدا رويدا قطار مكتظ من المارة ، يعبرون الجسر ، يدفعون دراجاتهم الهوائية وهي بدورها محملة ايضا . الناس يحملون متاعهم من صرة او حزمه . انتظار المنتظرين هنا مرهون بزمن لا نهائي امامهم وخلفهم . مرافقونا يبتسمون ، اذا ما فاتنا اللحاق بالطائرة قبل اقلاعها فسنطير في الاسبوع القادم ، واذا لم نستطع ذلك في الاسبوع القادم فسنبقى هنا على انتظار .

الى جانبنا يقف الاطفال الذين يعيشون في اكواخ من القش على ضفة النهر . يقفون صامتين بلا اضطراب . وفي داخل الاكواخ تعد طعام العشاء ، الدخان يتصاعد من سقوف القش ، الشمس المائلة الى الغروب تلون السحب السفلى باللون الاحمر البني الصديء .

هنا ونحن ننتظر حتى يحين موعد عبورنا الى الضفة الاخرى اذ تسللت الظلمه امام الشاحنات وسيارات الجيب المبعجة والمهترئة ، المغطاة بالاوراق المغبرة وموج من الناس المتعبين يحملون احمالهم الثقيلة ويمر بنا الجنود السيان بالبسة الميدان ، هنا الان تبدو بوضوح اوروبا التي تعفنت بانانيتها العمياء وعقمها وخيانتها التي تمارس كل ساعة في هذا البلد .

وتبدو لنا ايضا بوضوح قوة الارادة والتفوق التي نراها عند هؤلاء الناس في الحقوق والاكواخ في الملاجيء وعلى مراكز مراقبة واماكن الحماية وفي مناوبات العمل في المناجم ، في المعامل والمصانع تحت الارض وفي المناقشات التي تدور في مراكز التخطيط ، في نيران المناطق المهدمة بالقنابل وفي مستشفيات الميدان وفي العمليات الجراحية على اضواء فنابل الفحم . وفي بناء الشوارع واصلاحات البرك والسدود وفي بواخر السواحل وفي الزحف الى الجبهه ، في قوافل النقل التي تتقدم وئيدة وبثقل على طرق وعرة شاقة ، والدراجات المحملة باثقال كبيرة وهي تعبر ممرات وطرقات ضيقه وفي ممرات الجبال وفي الادغال وفي الشعاب الوعرة والانفاق في الجنوب ، في وضع المتفجرات وفي الهجوم على مراكز دخيرة العدو وفي الزحف والانتشار في مدينة سايغون .

الى يسار ممر بونتون حيث تتداخل الخطوط والظلال في الظلمه، والعمدان والاقواس المهدمه على هذا الجسر الضخم . بينما الاحتمال في هجوم مفاجيء للعدو على المدينة والنهر متوقع جدا ، من المحتمل ايضا ان تسقط القنابل على جسر بونتون او على الضفة في الاحياء المسكونة . نحن نعلم ان اصدقاءنا الذين ينتظرون ايضا معنا الان يحسبون حساب هذا الاحتمال يعرفون تماما ما مبتغى هذا العدو ولكن صبرهم وابتساماتهم تبوح لنا بانه حتى هدم مدينة هانوى لن ينهي كفاحهم . انهم يتفوقون على هذه القوة المادية لانهم يملكون ثباتا وقناعة داخلية وتضامنا واتحادا وقوة مقاومة فكرية نمت وتجذرت فيهم منذ عشرات ومئات السنين . العدو الذي يهاجمهم لا يملك شيئا غير القوه انه فارغ في داخله وليس له من مستقبل اخر غير ان يمزق ويسحق نفسه في سرعة اضطرابه وتهيجه .

كثيرا ما سمعنا عن المساعدة التي يتلقاها هذا البلد من الدول الصديقة الاشتراكية رأينا الاسلحة والادوات والآليات والعربات والطائرات ، قرأنا التقارير عن المساعدات الاقتصادية ونحن نعلم ايضا كم هي عظمة التقدير التي توليها جبهة التحرير الفيتنامية في الجنوب للدعم الاقتصادي وموقف التضامن والدعم من الرأي العالمي التقدمي ، ونحن نعرف ايضا ان شعب فيتنام ليس بمقدوره بدون هذا الدعم والمساعدات مواجهة العدوان الامريكي المستمر ، ورغم ذلك اننا نرى الان ان كل هذه المساعدات طفيفه وليست كافية باي حال وبالقياس الى القيم المهدده . سمعنا في فيتنام الكثير من عبارات العرفان والشكر ولمسنا الكثير من التقدير والاخلاص لكل اولئك الذين يدعمون هذا البلد عمليا وادبيا . ولم نسمع كلمة واحدة او تلميحا عن عدم كفاية هذه المساعدة وعن المصاعب التي تواجههم في ادخال هذه المساعدات لسبب يعود الى عدم وحدة واتفاق المانحين للمساعدات . مع هذا كله تخوض فيتنام ، البلد الذي يتحدث باعتزاز عن انتمائه لكل القوى الاشتراكية ، تخوض لوحدها من مكانها المتقدم الكفاح الطبقي ممثلة للعالم الثالث المنهوب والمسفوح دمه .

اما التدمير الفظيع لهذا البلد وهذه المشاق والقساوات التي تحت وطأتها يحارب هذا الشعب منذ اجيال نجد انفسنا نجابه وجها لوجه في ان نعلن عن افلاس التضامن العالمي .

الان تثير اضواء الانذار وعلى الضفة الاخرى يتوقف السير وتصعد الجسر آخر مجموعات ، وتدور موتورات العربات المنتظره وحارسات الجسر بخوذهن الفولاذية والبنادق المعلقة على جوانبهن يرفعن الحاجز وتبدأ ببطء حركة عربات النقل في عبور الجسر قادمة من المدينة على دفعات دفعات تتمايل في اكوام الطين ومن الادغال تاركة مسافات فراغ بين بعضها البعض . وها نحن نودع الاخ ـ نجوين دينه تي ـ ذي العينين الخضراوين الذي صاحبنا طيلة الوقت وحتى هذه اللحظة . قال : الارض تدور ... وربما يحصل لقاء ...

الواح الخشب السميكة بلا انتظام فوق بعضها او الى جانب بعضها البعض تتمايل ، تهتز بطقطقة وصرير . امواج الماء تتلاطم فتغمر الالواح . هنا وهناك تتكسر الواح خشب والسلاسل التي تحمل هيكل الجسر يعلو صريرها ، الان وقفة انتظار .. عندما هوت عجلات عربة بين الالواح ويجب رفعها . يبدو الجسر في الظلام خربا وقد ركب بشكل بدائي لسد الحاجة ولكنه يحمل ، اجل يحمل ويؤدي الغرض . ممهدو الطرق من الجيش يستبدلون القطع القديمة التلفه بغيرها جديدة ، وببطء يعاود الركب مسيرته نساء حفاة يحملن احمالهن على الاكتاف وقوافل متأخرة تمر بانحراف عن ركبنا . وعلى مقربة من الضفة ينحدر الجسر وتغطيه المياه التي تتلاطم على عجلات العربه ، تنتهي عملية العبور . يخيل الينا ان الجسر سيهوي ولكنه باق يحمل الالاف ويعبر عليه الالاف نهارا وليلا ، يهتز بتمايل وكلما تلفت قطعة استبدلها ممهدو الطرق من الجيش بغيرها . هنا وهناك تستبدل الالواح الخشبية وترتفع الاكوام . العربات تهدر موتوراتها فتصعد الى الضفة وبين طيات الغبار هناك كتل بشرية على انتظار بدراجاتهم ومتاعهم وعربات النقل المكتظه وسيارات الجيب والباصات والحمالات وعلى الطرق الوعره بين الاوحال والرمال وبين بقايا اقماع القنابل نعبر ... ونبتعد ... وبلا نهاية هو القطار الذي يقترب ليقلع بنا في الاتجاه المعاكس .

المانيا الغربيه

ترجمة د. عيسى علاونه